الشعر الزاهد بخراسان من خلال موسوعتي: يتيمة الدهر ودمية القصر

Ascetic Poetry in Khorasan Through My Encyclopedia: Yatima al-Dahr and Dimiya al-Qasr

الدكتور جواد غلامعلي زاده

أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة سيستان وبلوتشستان- زاهدان- إيران (الكاتب المسؤول)

j.gholamalizadeh@lihu.usb.ac.ir

الدكتور حسين مهتدي

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج‌فارس، بوشهر، إيران

mohtadi@pgu.ac.ir

تاريخ الإيداع: 2023/05/13 تاريخ القبول: 2023/06/16 تاريخ النشر : 2023/12/05

ملخص

ازدهر الشعر العربي بخراسان في ظل الدويلات الحاكمة عليها خاصة في القرنين الرابع والخامس من الهجرة وتطرق الشعراء فيها معظم الأغراض الشعرية المعهودة عند العرب ومنها الشعر الزاهد فتناولوا فيها معان زهدية عدّة كمثل التذكير بالموت والقناعة والدعوة إلى التقوى وغيرها. كثرة الشعر الزاهد عند الخراسانيين ظاهرة بارزة تحتاج بحثا علميا شاملا ولذلك تهدف هذه المقالة إلى أن تتطرق جانبين هامّين من جوانب الشعر الزاهد لدى الشعراء في خراسان وهما: الأسباب التي دعتهم إلى إنشاء الشعر الزاهد أولا والخصائص الهامة التي نجد في هذا اللون الشعري لديهم ثانيا؛ معتمدة فيها على المنهج الوصفي التحليلي. تحكي النتائج أن دعوة الإسلام إلى الزهد، وتوبة بعض الشعراء عن ماضيهم الملئ بالقبائح، ونفاق الأهل والأحبة في الدنيا، والشعور بالموت الذي يقرب من الإنسان خاصة في مشيبه، من الدوافع الرئيسة في ميل الخراسانيين إلى الشعر الزاهد و كذلك التأثر بآيات القرآن الكريم والاستفادة من المقطوعات الشعرية القصيرة إلى جانب السهولة في الكلمات والتراكيب من أهم الخصائص التي نجدها في الشعر العربي الزاهد في خراسان.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي، الشعر الزاهد، خراسان، أسباب الزهد

Abstract:

Arabic poetry flourished in Khurasan under the ruling states over it, especially in the fourth and fifth centuries of the Hijrah, and poets touched on it most of the poetic purposes familiar to the Arabs, including ascetic poetry, so they dealt with several ascetic meanings, such as the reminder of death, contentment, and the call to piety, and others. The abundance of ascetic poetry among the Khorasanites is a prominent phenomenon that requires comprehensive scientific research. Therefore, this article aims to address two important aspects of the ascetic poetry of the poets in Khorasan, namely: the reasons that prompted them to create ascetic poetry first, and the important characteristics that we find in this poetic color secondly; It is based on the descriptive analytical method. The results tell that the call of Islam to asceticism, the repentance of some poets for their past that is full of ugliness, the hypocrisy of family and loved ones in this world, and the feeling of death that approaches a person, especially in his old age, are among the main motives in the tendency of Khorasanis to ascetic poetry, as well as being affected by the verses of the Holy Qur'an and benefiting from the pieces Short poetics, along with ease in words and structures, are among the most important characteristics that we find in ascetic Arabic poetry in Khorasan.

key words: Arabic poetry, ascetic poetry, Khorasan, reasons for asceticism

1. المقدمة

إيران من البلاد التي استولى عليها المسلمون في القرن الهجري الأول ودخل الناس في دين الله أفواجا بعد أن كانوا مضطهدين بسبب التمييز الطبقي والاجتماعي الذي كان سائدا في الدولة الساسانية [1] كما دخل في الأصقاع المختلفة من إيران طوائف من القبائل العربية كبني بكر وبني تميم وسكنوا فيها فتشكل امتزاج اجتماعي بين العنصر الإيراني والعنصر العربي ولذلک نشاهد الكثرة الكاثرة من أبناء العرب أمهاتهم غير عربيات[2] كمثل المأمون الخليفة العباسي حيث ولد من أم إيراني. ومن الطبيعي أن تتسلل اللغة العربية في المناطق المختلفة من إيران حتى في خراسان التي كانت تقع آنذاک من الوقت مع اتساعها في أقصى الحدود الشرقية من إيران. مع استيلاء الدولة العباسية أصبحت خراسان مركزا تعتمد عليه الخلافة في مهام الأمور خاصة زمن المأمون العباسي وكان قدولد من أم إيراني كما أشرنا. مع دخوله في "مرو" وإقامته فيها مدة سنوات اشتدت حركة نقل اللغة العربية إلى خراسان ولما اختلف الأمين مع أخيه المأمون حول الخلافة بعد وفاة الرشيد، وجّه المأمون جيشا بقيادة طاهر بن الحسين الملقب بذي اليمينين إلى بغداد فاحتلها وقتل الأمين سنة 198هجريا، وبعد رجوعه من بغداد عهد إليه المأمون ولاية خراسان، ومنذ هذا الوقت بدأت حكومة الطاهريين في خراسان وهم كانوا مشتهرين بحبهم للعرب واللغة العربية[3] وسيطرت بعدهم الدويلات المستقلة الصفارية، والسامانية، والغزنوية التي كانت تحمي كلها اللغة العربية حتى انتشرت بين الخراسانيين إلى جانب اللغة الفارسية انتشارا واسعا تدل عليه كثرة الكتّاب والشعراء الفرس الذين جاءت أسماء عدد كثير منهم في كتابي "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" لأبي منصور الثعالبي و "دمية القصر وعصرة أهل العصر" لأبي الحسن الباخرزي. طرق الشعراء في خراسان معظم الأغراض الشعرية المعهودة عند العرب في البلاد العربية ومنها الشعر الزهدي الذي كثر عندهم إلى جانب الشعر الماجن مما يستحق النظر والتأمل. وقددفعنا الأمر إلى أن نتناول أهم بواعث الشعر الزاهد في خراسان وكذلک أهم الخصائص في شعرهم الزاهد ليتجلى لنا أبعاد من شعر الخراسانيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين وهو من موروثنا الثقافي في الأمة الإسلامية. وذلک من خلال التعريف بالزهد والشعر الزاهد، والحياة الأدبية في إيران عموما وخراسان خصوصا معتمدينِ فيه على المنهج الوصفي التحليلي.

1-1. أسئلة البحث

1. ما هو أهم الأسباب للشعر الزاهد في الأدب العربي بخراسان؟
2. كيف تجلّت الخصائص الشعرية للشعر الزاهد في الأدب العربي بخراسان؟

1-2. خلفية البحث

من البحوث التي وجدناها تتناول الشعر العربي في خراسان: كتاب «الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي» لحسين عطوان، حيث تطرق إلى الشعراء وأساليبهم في خراسان من الفتح الإسلامي حتى القرن الثاني للهجرة؛ وكتاب «جاحظ نيسابور» لمحمد باقر الحسيني، وقد أشار فيه إلى خصائص الشعر العربي في خراسان ضمن تعريفه للثعالبي ودراسة أشعاره. وله في ما يتعلق بالأدب العربي في خراسان عدة مقالات منها: «أسباب ظهور ادب عربى در خراسان» [أسباب ظهور الأدب العربي في خراسان] (1383 هـ.ش) باللغة الفارسية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15؛ وقد تناول البحث أسباب ظهور الأدب العربي وتطوره في خراسان. كما كتب مقالة بعنوان «آفاق الأدب العربي في خراسان من القرن الثاني إلى القرن الخامس» (1389 ش)، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد1؛ وقد بذل جهده فيها لبيان كيفية انتشار اللغة العربية في تلك الديار المترامية الأطراف والأسباب المؤثرة في بقائها واستمرارها. وللباحث محمدباقر الحسيني كذلك مقالة أخرى تحمل عنوان: «الهجاء في شعر خراسان خلال القرنين الرابع والخامس» (1390 ش)، مجلة بحوث في اللغة العربيّة وآدابها، العدد5؛ شاركه في كتابتها جواد غلامعلي زاده، حيث درس الباحثان الهجاء؛ أسبابه وأنواعه في شعر خراسان وقد درسا هجاء المدن كنوع من أنواع الهجاء في شعر خراسان. وهناك بهذا الصدد مقال آخر لمحمد باقر الحسيني وعنوانه «نقد وبررسي مضامين خمريات عربي شعراي خراسان در قرن چهارم وپنجم هجري» [نقد المضامين الخمريّة العربيّة للشعراء الخراسانيّين في القرنين الرابع والخامس الهجريّين] (1393 ش)، مجلة ادب عربى، العدد6؛ كتبها باللغة الفارسيّة وشاركه في كتابتها حسن خلف، حيث تناول الباحثان الخمر وصفاتها والصنائع البيانيّة والأدبيّة للقصائد الخمريّة في القرنين الرابع والخامس في خراسان. هناك مقالة أخرى بعنوان «توظيف الاقتباس والتضمين في الأدب العربي بخراسان خلال القرنين الرابع والخامس من الهجرة» (1439هـ.ق)، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد41؛ كتبها جواد غلامعلي زاده ودرس فيها الاقتباس والتضمين بمختلف أنواعهما بوصفهما من الظواهر الأسلوبيّة المتناثرة في شعر الخراسانيّين. كما تناول الباحث جواد غلامعلي زاده بمشاركة عبد الباسط عرب يوسف آبادي مقالة بعنوان «مظاهر الثقافة الفارسيّة في الشعر العربي بخراسان وسجستان خلال

القرنين الرابع والخامس الهجريّين» (1397 ش)، مجلة بحوث في الأدب المقارن، العدد32؛ وقد درسا فيها موضوعات كالعادات والتقاليد الإيرانيّة كمثل بعض الاحتفالات الخاصّة بالإيرانيّين وهكذا ترجمة الأشعار الفارسيّة إلى العربيّة. من خلال هذا التقصّي تبيّنت لنا خلفيّة البحث وأن هذا الموضوع الذي بين أيدينا لم يتناوله أحد بشكل مستقل؛ مما يستحق النظر والتأمّل.

2. الحياة الأدبية في إيران عمومًا وخراسان خصوصًا

كانت ولاتزال خراسان ينبوع الشعراء في إيران في الأدبين الفارسي والعربي لكن الشعر العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ازدهر في هذا المنطقة العظيمة إلى جانب سائر المدن في إيران ازدهارا لايُستهان به. كانت اللغة العربية على كل لسان وراجت سوق الشعر العربي من القرن الرابع الهجري في المدن الإيرانية رواجا عظيما[4] وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي من الإيرانيين في يتيمته أكثر من مائة وثمانين شاعرا وزادوا على المائتين في دمية القصر للباخرزي. لاشک أن الفضل في هذا الصدد يرجع إلى عناية البويهين في غربي إيران لما حملوا لواء الثقافة العربية فأتقنوا العربية بدل الفارسية وروح التسامح في السامانيين في خراسان حيث اتخذوا بخارى عاصمة لهم وشجّعوا الحركة العلمية والأدبية إلى أن أصبحت بلاطهم في بخارى ملتقى أرباب العلم والأدب وقد أشار الأديب الشهير الثعالبي في يتيمة الدهر: «وكانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر»[5]. يجدر بنا هنا أن لاننسى حركة بدأها في خراسان وسجستان الصفاريون، والسامانيون في إحياء اللغة الفارسية وتقاليدها واستشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار الشعر الفارسي لهم ينافسون به الشعر العربي إلا أن هذا النشاط لإحياء الأدب الفارسي رغم وجود شعراء كبار كأمثال الفردوسي صاحب ملحمة الشاهنامة والفرخي السجستاني لايقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربي في إيران خصوصا خراسان طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين وأكبر دليل على ذلک وجود الموسوعتين الشعريتين العظيمتين أعني بهما يتيمة الدهر ودمية القصر في حين لانشاهد كتابا يؤلف ويضمّ بين دفّتيه شعراء من الفرس في القرنين المذكورين، وأول كتاب أُلِّفَ وعُني بالشعر الفارسي هو كتاب لباب الألباب لعوفي المؤلف في أوائل القرن السابع الهجري[6]. من جهة أخرى لم تكن العربية مختصة بالأدب بل كانت اللغة العربية لسان العلم في العلوم المختلفة ويصوّر ذلک أبو ريحان البيروني قائلا: «إلى لسان العرب نُقلت العلوم في أقطار العالم، فازدانت وحلَت إلى الأفئدة، وسرَت محاسن

اللغة منها في الشرايين والأوردة»[7] ثم يشير إلى مدى حبه بالنسبة إلى هذه اللغة فيقول: «والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية»[8]. نوجز القول بأن جرت اللغة العربية في لسان الناس والأدباء في إيران طوال القرون المتمادية ولو لم يكن الفتح المغولي وتدميرهم كل ما صادفهم من الحضارات لظلّ الشعر العربي حيا يعيش جنبا إلى جنب الشعر الفارسي.

3. التعريف بالشعر الزاهد

إن موضوع الزهد من المواضيع الدينية والأخلاقية التي تناوله الشعراء في البلدان العربية إلى جانب سائر الفنون الشعرية منذ زمن قديم. جاء في لسان العرب: «الزُّهد و الزَّهادة في الدنيا و لا يقال الزُّهد إلَّا في الدين خاصة، و الزُّهد: ضد الرغبة و الحرص على الدنيا، و الزهادة في الأَشياء كلها: ضد الرغبة»[9] وعرّفه صاحب كتاب التعريفات فقال: الزهد هو ترك الميل إلى الشيء وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها[10] وفي المصطلح الأدبي إن «الزهد هو أن تعزف عن ملذات الدنيا ظاهرها وباطنها، وأن لاتفرح بما في يدک ولا تحزن على فقد أيّ شيء منها، وذم واستصغار الدنيا وما فيها في قلبک وجعلها مجرد وسيلة لرضا الله تعالى، وأن تترک ما لاينفعک في الدار الآخرة»[11]. يبدو لمن يدقق في الشعر العربي بخراسان أنهم طرقوا معظم الأغراض الشعرية المعهودة عند العرب ولم يكن الشعر الزاهد بمعزل عن ذلک. فالمجتمع الخراساني بما فيه من الدوافع المتعددة، شاع فيه هذا اللون الشعري حتى انجرّ إلى التصوف في مساره وإليک هذه الدوافع:

4. دوافع الشعر الزاهد في خراسان

4-1. دعوة الإسلام

دعا الإسلام الى الحرية والتحرر من كل ما يسيطر على الإنسان من مال وبنين وشهوات ليكون الإنسان مالكا لزمام أهوائه ولامملوكا لها وذكّرهم بحقيقة الدنيا والآخرة وجاءت مادة الزهد لفظاً في القرآن الكريم مرة واحدة: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ»[12] ولكن جاءت آيات كثيرة تدل على الزهد معنىً وعلى عدم الغرور بالحياة الدنيا وما فيها من التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد والشهوات، ورضوان الله في كل حال ونذكر بعضا منها: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»[13]، «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»[14]، «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى»[15]، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ»[16]، «اعلَموا أَنَّمَا

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ»[17]. استقى الشعراء في خراسان من هذا المعين القرآني في أشعارهم الزاهدة فاستشهدوا بآيات منها ترغيبا في الزهد عن الدنيا خاصة الفقهاء الواعظون منهم في دعواتهم الناس على المنابر إلى الحياة الطيبة والصالحة بعد أن رأوا عند بعض الناس انتشار تيار المجون وحب الدنيا وترفها. الأمثلة لهذا الداعي الديني واستخدام الشعراء آيات القرآن الكريم لهذا الغرض كثيرة عند زهاد الخراساني ولكنني أوجز الأمثلة بسبب ضيق المجال بذكر مثالين: أما المثال الأول لأبي جعفر محمد -وكان ولدا للفقيه أبي الحسن البخاري -حين يشير إلى قرب الموت وللإنسان أن يتقي ويعمل لآخرته قائلًا:

قَـــد أزِفَ المَـــوتُ وَ أهوالُـــه أهـــلَ الخَطيّـــاتِ ألا تَتَقُـــون؟
وَ زَهـــرَةُ الـــدنيا متـــاعٌ ألا لِغَيرِها فَليَعمَلِ العَامِلُو َن[18]

أشار الشاعر في البيت الأول إلى الآية الشريفة:"إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تتّقونَ" وفي البيت التالي يشير إلى الآيات الشريفة: «أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتتنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هذا فلْيعْمَلِ الْعامِلُونَ»[19] معتقدا أن الدنيا لاقيمة لها ولايبقى العمل فيها كمثل الزهرة التي لها عمر قليل، أمام الآخرة التي يفيد الإنسان العملُ الصالح فيها. ومنهم قول أبي عبد الله البردسيري وكان من الواعظين بخراسان لما رأى أن موعظاته لاتنفع الجاهلين قائلًا:

لـــم ينفـــع الجـــاهلين مـــوعظتي مـــا ضـــرّني جهلهـــم فَيُعـــديني
لمّـــا أضـــاعوا نصـــيحتي و أبَـــوا قُلـــتُ: لكـــم ديـــنكم و لـــي ديـــن[20]

استخدم الشاعر من الآية الشريفة لكم دينكم ولي دين تلميحا إلى عدم مقدرته في نصحه الجاهلين من الناس لما أضاعوا مواعظه ونصائحه.

2-4. التوبة

من الدواعي التي مال الشعراء بخراسان بسببه إلى الزهد، التوبة بعد حياة منغمسة في اللهو والمجون أوقل حياة طمعوا فيها الوصول إلى المال والجاه من خلال مدائح مدحوا بها الأمراء والوزراء وضيّعوا عمرهم بسببها. أبو محمد الدهان أديب لغوي من زمرة هؤلاء الشعراء الذين ضيّعوا عمرهم في التغزل والمدح وله أشعار كثيرة في مدح الأمير أبي الفضل الميكالي وأبيه حتى

آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ويبدو من كلام الثعالبي حوله أنه كان شاعرا متغزلا مادحا في عمره: «ولولا أنه سألني أن لاأورد في كتابي هذا شيئا من شعره في الغزل والمدح لكتبت من ذلك جملة صالحة، لكنني انتهيتُ إلى رأيه، وعملتُ بما سألني به ولم أتعدّه»[21] ولذلك لما أزمع الحج والزيارة قال بعاطفة صادقة جياشة متأكدا مشيه على أقدامه ومحبا جعل العين مركبا للوصول إلى زيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وصحبه الأخيار:

أتيتُـــكَ راجِـــلاً وَوَدِدتُ أنّـــي مَلَكــتُ ســوادَ عينـي أمتَطِيــه
وَمــا لــي لاأسِــير علــى المَــآقي إلــى قَبــرِ رَســولُ اللهِ فِيــه[22]

كما يشير في شعر آخر له إلى عصيانه ربَّه ويعترف بقبائح أعماله وليس له أمام ربه إلا الظن الجميل مما يثير العواطف له من جهة ويلمح إلى عاطفته الصادقة من جهة أخرى قائلًا:

عَبــدٌ عَصــَى رَبَّــه وَلكــن لَــيسَ سِــوَى واجِــدٍ يَقُــولُ
إن لَــم يَكــن فِعلُــهُ جَمِــيلاً فَإنَّما ظَنُّهُ جَمِيُ ل[23]

ومن التوبة قول الشيخ أبي الحسن الكرجي عند الشيب لما أشار إليه عقله الإقلاع عن التصابي بعد أن كان في عمره لاهيا شاربا للخمر:

هَجَــرتُ اللَّهــوَ إذ عَقلِــي عَلــى نَفســِي أشــارَ بِــهِ
وَ حَلّانِــي حُلــولَ الشَّيــ بِ كُرهاً عَن مَشَارِبِهِ
فَمَــا أســعَى إلــى راحٍ وَ سَاقِيهِ وَ شارِبه
وَ إمّــا عَــنَّ لِــي لَهــوٌ لَهَت كَفِّي بِشَارِبه
فَهَــل يَــا نَفــسُ أنــتِ عَلَــى مُلازَمَةِ المُشَارِ بِ ه[24]

4-3. النفاق

يبدو من بعض الأشعار العربية للخراسانين أنهم زهدوا عن الدنيا بسبب نفاق رأوه في أهلهم وأقاربهم أو من كانوا يأنسون بهم طيلة حياتهم. ولاغرو أن الإنسان يعيش مع أهله وذويه وأصدقائه ويأنس بهم طول حياته ولذلك لايتوقع منهم النفاق. وليس من المستغرب أن يميل في هذه الأحوال إلى الزهد بعد أن رأى النفاق ممن لايرجو منهم إلا الحب والمودة والخلوص. الرجوع إلى القرآن العظيم يجعلنا نهضم هذا الميل إلى الزهد بعد رؤية النفاق من الأقارب أحسن

فأحسن لما يقول: «الأَخِلّاءُ يَومَئِذٍ بَعضُهُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ إلّا المُتَّقِينَ »[25]. هذا أبو جعفر البحاثي مشهور بالأدب والعلم وكان متصرفا في القضاء ببلاد خراسان يشير في أبيات إلى نفاق الناس تجاه الميت فيصور ممن حوله من ذويه وأقربائه تصوير حيوانات مفترسة تبكي في العلن وتفرح في السّر بسبب موته ثم ينسونه عن قريب وكل يشتغل بميراثه بعد أن دفنوه ويؤكد الشاعر أن هذا المصير مصير لجميع الناس أيا كانوا في حياتهم من الأجلّاء أو من الأذلّاء؛ قائلًا:

سِـــباعٌ حَوالَيــهِ زُرقُ العُيُــونِ كِـــلابٌ وَأُســـدٌ وَ ذِئـــبٌ أَذَلّ
فَهــذا يُجــاذِبُ مَــا قَــد حَــواه وَ هَذا يُخالِسُهُ مَا فَضَل
إذا وَضَـــعُوهُ عَلَـــى نَعشِـــهِ أشَاعُوا البُكا وَأَسَرُّوا الجَذَل
وَ إن دَفَنُـــوهُ نَسُـــوهُ مَعـــاً وَ كُلٌّ بمِيراثِهِ مُشتَغَل
فَهــذَا قُصــارَى جَمِيــعِ الأنــا مِ مَن جَلَّ أو قَلَّ مِنهُم وَ ذَلّ[26]

و للبحاثي شعر آخر في عدم وفاء الإخوان قائلا:

ليــتَ شِــعرِي إذَا خَرَجــتُ مِــنَ وَ أصــبَحتُ سَــاكِنَ الأجــداثِ
هَـل يَقُـولَنَّ إخـوَتِي بَعـدَ مَـوتِي: رَحِمَ اللهُ ذلكَ البَحّاثِ ي[27]

فاقتدى به في البيتين، الشيخ أبو مسعود أحمد بن عثمان الخُشنامي وقال بيتين على طريقته حتى مات هو والبحاثي و رأى أبوالحسن الباخرزي ظنهما وتخمينهما صحيحا فخاطب الخشنامي مشيرا إلى ودّه وسجاياه الكريمة ثم استغفر الله له لمّا رأى ظنه صحيحا بالنسبة إلى إخوانه الذين كانوا يدّعون الصداقة الخالصة له لكنهم تركوا الخشنامي بعد وفاته وخذلوه؛ قائلًا:

يَـا بـنَ عُثمـانَ كنـتَ خِـلًّا وَدُوداً نَاصِـحَ الجَيـبِ ذا سَـجَايَا كِـرامِ
فَطَوَتــكَ المَنُــونُ دُونِــيَ طَيَّــا وَ كذاكَ المَنُونُ قَصرُ الأنامِ
فَأنــا اليــومَ قَائِــلٌ كُــلَّ وَقــتٍ رَحِمَ اللهُ ذلِكَ الخُشنَامِ ي[28]

ومن نفاق الأهل في السّر والعلن قول الأمير أبي محمد الميكالي وهو يشير في قصيدة زاهدة قصيرة له إلى زمن الموت للإنسان حيث لايرتجيه أهله ويشمئز منه إخوانه حتى أولاده بعد أن لعبت به حوادث الدهر وهوكان في أيامه الماضية صديقا صافيا مع إخوانه وأبا خالصا لأولاده الذين ربّاهم طوال حياته؛ قائلا:

أَلِـفَ السُّـهادُ وَ طـارَ عَنـهُ رُقَـادُهُ وَ جَفـا الكـرَى لَمّـا أقَـضَّ مِهَـادُهُ
وَ تَدَاوَلَتـهُ مِـنَ الزَّمـانِ حَـوادِثٌ فَرَثَى لهُ مِن ضُرِّهِ حُسّادُهُ
هَـل يَسـتَنِيمُ مِـنَ السُّـلُوِّ مَذَلَّـةً لايَرتَجِيهِ أهلُهُ وَ بِلادُهُ
لَعِبَت بِهِ أيدِي الخُطُوبِ وَعَافَـهُ إخوَانُهُ الأَدنَونَ بَل أولادُ ُه[29]

4-4. الشعور بالموت

من الدواعي التي أشار الشعراء العربية في خراسان للزهد عن الدنيا ومافيها، هو الشعور بقرب الموت وإحساس فناء الحياة القصيرة التي يعيشها الإنسان وممن منع منهم إكرام الدنيا بسبب عدم خلودها أبو عبد الرحمن النيلي وكان كوفي المولد حيث يرشدنا بقصر الحياة الدنيا والشعور بالموت قبل مجيئه في البيتين التاليين وإلى عدم التوقف والمقام في الدنيا وقصَر المصاريع وسهولة الألفاظ فيهما مما يُذكّرنا الأبيات القصيرة والسهلة لأبي العتاهية؛ قائلا:

مُكـــــرِمُ الـــــدُّنيَا تَوَقَّـــــف فَهـــــيَ لَيسَـــــت بِكَرِيمَـــــه
لاتَـــــرُم فِيهـــــا مُقامـــــاً فَهِيَ لَيسَت بِمُقِيمَ ه[30]

وهذا أيو يوسف أحمد بن يعقوب لما هرم وشعر بقرب الموت في شيبه أثار الزهد على المدح والغزل والهجاء فصور لنا الشباب بثوب جديد قشيب قد بُلي وانقضى أيامه وجاء المشيب بعده، فلا لذة للحياة ليلتذّ الإنسان به وقد اقترب أجله، قائلًا:

أرَى زَمَـنَ الشَـبِيبَةِ قَـد تَقَضَّـى وَ أُخلِـقَ بَـردُهُ الغَـضُّ القَشِـيبُ
وَوافـــانِي المَشِـــيبُ كمَـــا تَـــرَاهُ فَما عَيشِي وَ قَد وَافَى المَشِيبُ[31]

كذلك لما اشتعل رأس أبي القاسم الخوافي شيبا ووهن عظمه بعد أن قضى عمره بالعلم والأدب في نيسابور خاطب نفسه واصفا إياها بالعمر الطويل وأخافها من رجفة الموت المقدّر خاصة بعد بلوغها الثمانين من العمر ويحذرها من الترحال لإنها على وشك الموت ولابد أن يشعر بالموت ولاترجو إلا مرقدا له:

أبَـا قَاسِـمٍ خَلَّفـتَ عُمـرَكَ كُلَّـهُ فَـلا تَـكُ مُغتَرّاً بِمَـا تُرجِـفُ المُنَى
فـإنَّ امـرَأ نَـاجَى الثَّمَـانِينَ عُمـرُهُ بَعِيدُ نَجاةِ النَّفسِ مِن مِخلَبِ
فَوَطِّن عَلَى التَّرحَالِ نَفسَكَ ثانِياً وَلاتَرجُ إلا مَرقَدَ اللَّحدِ مَوطِنَا[32]

5. أهم الخصائص للشعر الزاهد عند الخراسانيين

ركّز الشعراء في خراسان على معان عديدة في شعرهم الزاهد، منها: التذكير بالموت، وذم الدنيا وأهلها، والمشيب، والبعد عن الطمع في جمع الأموال، والعفو، والقناعة ولهم في أشعارهم هذه خصائص هامة لابد من ذكرها وهي كما تلي:

5-1. التأثر بآيات القرآن الكريم

أشرنا سابقا أن الخراسانيين استقوا من معين القرآن الكريم ودعووا الناس إلى التقوى واستمسكوا بآى القرآن وتأثروا بها تأثيرا واضحا. فمنهم أبو إبراهيم الميكالي حيث استخدم في موعظة له الآية الشريفة «إنّي أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ»[33] التي نزلت في قوم عاد على لسان هود النبي صلوات الله عليه:

يَـــا قَومَنَـــا لاتُضِـــيعُوا ذِمَـــامَ كُـــلِّ حَمِـــيمِ
وَلاتُحِلُّـــوا جُحُـــوداً بِكلّ حقٍّ قَدِيمِ
وَذَكِّـــرُوا الـــنَّفسَ وَعظـــاً بِقَولِ رَبٍ رَحِيمِ
إنِّـــي أخَـــافُ عَلَـــيكم عَذَابَ يَومٍ عَظِيمِ[34]

ومن تأثرهم بآيات القرآن العظيم قول الفقيه الزاهد أبو عبد الرحمن عمر بن الحاكم لما يُخبرنا عن عمره القصير ولم يقدّم من عمل خير لآخرته مشيرا في البيت التالي خوفه من ضياع دينه بسبب حرصه على الدنيا وما فيها:

عُمـرِي قَصِـيرٌ وَ مـا قَـدّمتُ مِـن لله، زاكٍ، و مـا قَضَّـيتُ مِـن وَطَـرِي
وَ أتعَبَتنيَ دُنيـا مَـا لَهـا خَطَـرٌ يَظَلُّ مِن حِرصِها دِيني على خَطَرِ[35]

كما يبدوا إن الشاعر لمح في البيت الأول بقوله: «وما قدمت من عمل لله ذاك»إلى قسم من الآية الشريفة: «وَما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ»[37]. هذه التأثيرات الواضحة من القرآن الكريم في الأشعار الزهدية للخراسانيين تُبيّن مدى أنسهم بالقرآن والاستعانة منه في تعبيراتهم من جانب وأنس الناس بالقرآن العظيم واعتقادهم بحقيقته من جانب آخر لأنهم ولو كانوا

مغرقين في الدنيا وكانوا ينسون القرآن و المعتقدات الدينية أحيانا إلا أن قلوبهم صافية تُصدِّق الآيات الشريفة.

5-2. الاستفادة من المقطوعات القصيرة

يبدو لمن دقق في موسوعتي: يتيمة الدهر و دمية القصر أن الكثير من أشعار الخراسانيين مقطوعات قصيرة في جميع الأغراض الشعرية لديهم وليس الزهد بمعزل من ذلك ونظرة عابرة إلى الأبيات السابقة تؤيد هذا المعنى ويُغنينا عن ذكر الأمثلة الأخرى في هذا الصدد. ولعل السبب يرجع إلى حرفتهم التي كانت لاتتناسب الشاعرية كثيرا لأن حرفتهم الأولى الاشتغال بالفقه، والقضاء[38]، وما إلى ذلك؛ والحال أن الشعراء المعروفين في البلدان العربية كانت الشاعرية حرفتهم الأولى ومنهم أبوالعتاهية وقد وصلت أبيات القصيدة واحدة منه في الزهد إلى أربعة آلاف بيت.

5-3. سهولة المفردات بما يحاكي النثر والخطب

راج التصنيع والتصنع في القرنين الرابع والخامس الهجريين في آثار الأدباء شعرا ونثرا ويبدو أن التكلف في الشعر وتوظيف المحسنات والألاعيب اللفظية كان من مظاهر براعة الشعراء فأكثروا منها في أشعارهم. يرى شوقي ضيف أن دارس الشعر العربي بعد القرن الثالث للهجرة يحس بظاهرة واضحة تمتد في هذا الشعر وتسيطر عليه، وهي ظاهرة التصنع والتكلف الشديد وهي تُرينا تطور الفن إلى جانب تطور الحضارة[39]. وكان الشعراء الخراسانيون يستخدمون المحسنات اللفظية خاصة الجناس بمختلف أنواعه في سائر أشعارهم كثيرا إلا أن السمة البارزة أوالطابع العام في أشعارهم الزهدية كانت سهولة الألفاظ وعدم الغرابة وكذلك عدم الغموض في معانيهم. وليس من المستغرب أن يكون السبب في كثرة المخاطبين لهذا اللون الشعري؛ إذ كان الشاعر في مثل هذه الحالات كخطيب واعظ يخاطب الصنوف المختلفة في المجتمع من عالم وغير عالم عامّيّ بل في كثير من الأحيان كانت العوام من الناس مخاطبي الشاعر ولم يكن بدّا له في أن يستفيد من الألفاظ السهلة وحتى الأوزان الخفيفة حتى يحفظ الناس كلامه بسهولة من جهة و يصل شعره إلى سائر الأنحاء بسرعة. نظرة عابرة إلى أشعار الإمام أبي القاسم القشيري صاحب "الرسالة القشيرية" المعروفة في التصوف يؤيد كلامنا حيث استخدم وزنا خفيفا و إلى جانبه لانجد تعقيدا وصعوبة في الكلمات ولافي المعني الذي أراده وهو أن الأرض واسعة لمن ضاق به المكان وواجه الهوان والاستخفاف:

الأرضَ أوسَـــــــعُ رُقعَـــــــةً مِــن أن يَضِــيقَ بِــك المكــانُ

وَ إذا نَبَـــــا بِـــــكَ مَنـــــزِلٌ وَيَظِلُّ يَلحَقُكَ الهَوانُ
فَاجعَـــــل سِـــــواهُ مُعَرَّســـــاً وَ مِنَ الزَّمانِ لكَ الأمانُ[40]

والتدقيق في هذه الأشعار تبين لنا ما تأثر به الشاعر بالآية الشريفة: «إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئک مأواهم جهنم وساءت مصيرا»[41]
ولنمثل مثالا آخر للقاضي أبي علي عبد الوهاب بن محمد وكان من الزهاد والنساک في نيسابور:

مَـــا فِـــي شِـــكايَةِ مَـــن بِـــهِ بَعـــضُ الأذِيَّـــةِ مِـــن حَـــرَج
وَالصَّـــــبرُ أجمَـــــلُ بِـــــالفَتَى وَالصَّبرُ مِفتَاحُ الفَرَ ج[42]

يدعونا الشاعر في البيتين إلى الصبر تجاه الأذى لأن الصبر زينة الإنسان واستفاد من الألفاظ السهلة البسيطة إلى جانب الوزن الخفيف في شعره هذا؛ كما زيّن كلامه في المصرع الأخير بالمثل المعروف عند العرب وهو: «الصبر مفتاح الفرج» وهي من الحكم والأمثال التي أصبحت مثلا رائجا بين الناس في إيران أيضا مما يقرّب شعر الشاعر إلى عقول الناس وهذا اللون من البيان البسيط من دون تعقيد في الكلام يُناسب الوعظ الذي يريد الشاعر أوالخطيب به الإثارة والتنبه للمتلقين.

6. النتائج

نزحت قبائل عربية إلى إيران بعد أن فتحها المسلمون وبطبيعة الحال أدخلت هذه القبائل لغتهم معهم إلى المناطق الإيرانية ومنها خراسان فأصبحت اللغة العربية بين الإيرانيين مع مرّ العصور لغة التخاطب حتى لغة شعرهم وأدبهم. القرنان الرابع والخامس الهجريان بما فيهما من حب الدويلات الحاكمة في خراسان للعلم، والأدب، والمعرفة، وحماياتهم الكثيرة من الأدباء بمثابة عصر ذهبي ازدهر فيه الأدب العربي واحتلّت مكانة مرموقة. طرق الشعراء بخراسان نفس الأغراض الشعرية التي كانت رائجة عند العرب ومنها الشعر الزاهد الذي تناوله الشعراء كثيرا مما يحكي لنا المكانة العالية للزهد عند الخراسانيين. هذه الكثرة الكاثرة للزهد في شعر الخراسانيين أصبحت ذريعة هامة للتحقيق حول شعرهم الزاهد؛ حيث توصلت هذه المقالة في نتائجه إلى أن دعوة الإسلام إلى الزهد، وتوبة بعض الشعراء عن ماضيهم الملئ بالقبائح، ونفاق

الأهل والأحبة في الدنيا، والشعور بالموت الذي يقرب للإنسان عادة في مشيبه من الدوافع الرئيسة في ميل الخراسانيين إلى الشعر الزاهد و كذلك التأثر بآيات القرآن الكريم والاستفادة من المقطوعات الشعرية القصيرة إلى جانب السهولة في الكلمات والتراكيب من أهم خصائص الشعر الزاهد عند الشعراء في خراسان.

[1] - محمد علي آذر شب، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي(1)، منظمة سمت، طهران، ط4، 1389هـ.ش، ص 41
[2] - المصدر نفسه، 31
[3] - عبد الغني إيرواني زاده ونصر الله الشاملي، الأدب العربي والإيرانيون، منظمة سمت، طهران، ط1، 1384ه.ش، ص 18
[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج5، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، ص568
[5] - أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ص115
[6] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص563
[7] - المصدر نفسه، 564
[8] - المصدر نفسه
[9] - ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.ق، ص 196
[10] - علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م، ص95
[11] - شهاب آحمد محمد وعباس فاضل عبيد، مفهوم الزهد وفضله وفرقه عن التصوف، مجلة كلية التربية الإسلامية، مج26، ع107، 2020، ص497
[12] - سورة يوسف، الآية 20
[13] - سورة حديد، الآية 23
[14] - سورة الأعلى، الآية 16و17
[15] - سورة النساء، الآية 77
[16] - سورة الفاطر، الآية 5
[17] - سورة الحديد، الآية 20
[18] - أبوالحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج2، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993م، ص1403
[19] . سورة فصلت، الآية 58-61.
[20] - أبوالحسن الباخرزي، ج2. 1313
[21] - أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، ج4، ص 500
[22] - المصدر نفسه، ص498
[23] - المصدر نفسه، ص499
[24] - المصدر نفسه، ج5، ص257
[25] - سورة الزخرف، الآية 67
[26] - أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، ج4، ص513
[27] - أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر، ج2، ص 991
[28] - المصدر نفسه، ص 991-992
[29] - المصدر نفسه، ص 953
[30] - المصدر نفسه، ص 966
[31] - المصدر نفسه، ص 992-993

[32] - المصدر نفسه، ج3، 1500-1501
[33] - سورة الشعراء، الآية 135
[34] - أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر، ج2، ص957
[35] - المصدر نفسه، 1029
[36] - المصدر نفسه، 1029
[37] - سورة البقرة، الآية 110
[38] - محمد باقر الحسيني، جاحظ نيسابور، منشورات جامعة الفردوسي، مشهد، إيران، ط1، 1382هـ.ش، ص 68
[39] - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، بلا تا، ص277
[40] - أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر، ج2، ص995
[41] - سورة النساء، الآية 97
[42] - أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر، ج5، ص302

المراجع و المصادر

القرآن الكريم
1. محمد علي آذرشب، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي(1)، منظمة سمت، طهران، ط4، 1389هـ.ش.
2. عبد الغني إيرواني زاده ونصر الله الشاملي، الأدب العربي والإيرانيون، منظمة سمت، طهران، ط1، 1384هـ.ش.
3. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج5، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2.
4. أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
5. ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.ق.
6. علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م.
7. شهاب آحمد محمد وعباس فاضل عبيد، مفهوم الزهد وفضله وفرقه عن التصوف، مجلة كلية التربية الإسلامية، مج26، ع107، 2020.
8. أبوالحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج2، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993م.
9. محمد باقر الحسيني، جاحظ نيسابور، منشورات جامعة الفردوسي، مشهد، إيران، ط1، 1382هـ.ش.
10. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، بلا تا.277